آفاق وسياقات
تشرين الأوّل ٢٠٢٤ / العدد ١ - ص. ٢٦-٣٥

نظرة في المال من خلال الكتاب المقدّس

الأخت يارا متّى

من راهبات العائلة المقدّسة المارونيّات، حائزة دكتوراه في اللاهوت والكتاب المقدَّس (الجامعة الكاثوليكيّة في باريس)، أستاذة العهد الجديد والأدب اليهوديّ القديم في جامعة القدّيس يوسف وجامعة الروح القدس الكسليك، عضو في المجلس التنفيذيّ لرابطة الكتاب المقدَّس العالميّة، عضو في الرابطة الكتابيّة في الشرق الأوسط، لها منشورات وكتابات متعدّدة في علم الكتاب المقدَّس والتطبيق الرعويّ.

خلاصة

يعالج البحث نظرة المؤمن إلى المال التي يعكسها الكتاب المقدّس، وذلك، من خلال إشكاليّة ارتباط الغنى بالبركة الإلهيّة في العهد القديم، ومن خلال مواقف يسوع وتصرّف بولس العمليّ في العهد الجديد. ويبقى الهدف في الاعتراف بأولويّة الله للمؤمن كما في المشاركة في قلب الكنيسة.

كلمات مفتاحيّة

الكتاب المقدّس - المال - يسوع - بولس - الغنى - أجرة المبشّر - مجّانيّة الإنجيل - الشركة الكنسيّة.

Résumé

Cet article examine le point de vue du croyant sur l'argent tel qu'il est reflété dans la Bible. Cela se fait à travers la question de l'association de la richesse avec la bénédiction divine dans l'Ancien Testament, et à travers les attitudes de Jésus et le comportement pratique de Paul dans le Nouveau Testament. L'objectif est de reconnaître la priorité de Dieu pour le croyant et de participer au cœur de l'Église.

Mots-clés

Bible – argent – Jésus – Paul – richesse – gages de l'évangéliste – gratuité de l'Évangile – communion ecclésiale.

لا يحتاج الإنسان المعاصر إلى براهين تثبت أهمّيّة المال أو الاقتصاد في عالمنا الحاليّ. فالإنسانُ هو فاعل حقيقيّ في عصب الحياة الفرديّة والاجتماعيّة، كما في المواقف والأفكار والإيديولوجيّات وفي كيفيّة التعاطي مع الأشياء ومع الآخرين. ولا يغيب عن بال أحد أنّ موضوع المال لا يمكن أن يكون محايدًا أو يمرّ مرور الكرام، بل هو موضوع قادر دائمًا على التحريك أو التحريض، أكان سلبًا أم إيجابًا. ولا تقتصر الأمور على ما ذُكر فقط، فالمال قادر على الاجتذاب أيضًا أو بالعكس، على إثارة الرفض أو الاشمئزاز. ونادرًا ما يكون الإنسان الحرّ والواعي والملتزم في مجتمعه لامباليًا بموضوع المال. فماذا يكشفُ الكتاب المقدّس في هذا الموضوع، وهل نجد في النصوص رأيًا واضحًا وثابتًا يتعلّق بموقف الإنسان من المال؟ وهل نتصفَّح الكتب المقدّسة للبحث في نصوصها عن تبريرٍ لمواقفنا أو عن خطٍّ معيّن نبني عليه سلوكيّاتنا وتصرّفاتنا؟

من الناحية المنهجيّة، لا نريد في هذا البحث المقتضب، تحديد المواضع في الكتاب المقدّس وعرض الآيات التي يُذكر فيها المال أو الغنى وما يتّصل بهما بشكل مسهب، ولا سيّما أنَّ عدد التلميحات والاستشهادات المبيّنة في هذا الشّأن يتخطّى الألفين، ويجب في كلّ مرّة وضع الآية في إطارها وشرحها في سياق النصّ. لذلك، ضمن حدود هذا العرض البسيط، أقترح استهلال التفكير بدءًا من إشكاليّتَين اثنتَين، لعلّهما تساعداننا أكثر على الفهم والتحليل.

تنطلق الإشكاليّة الأولى من التناقض الظاهر الذي يلحظه القارئ في نصوص الكتاب المقدّس حول ما يتعلّق بالمال. فمن جهةٍ، يحذّر الكاتب الملهم من شرّ الغنى الممكن الحدوث. ومن جهة أخرى، لا يبدو الغنى أحيانًا علامة بركة من الله وهبة من لدنه فقط، إنَّما هو مكافأة للإنسان الصالح. وهذه الإشكاليّة متجذّرة في العهد القديم، وهي تشكّل النقطة الأولى في البحث.

أمَّا بالنسبةِ إلى الإشكاليّة الثانية المطروحة، فنسلّط الضوء مباشرة على العهد الجديد، لنستنتج مواقف يسوع من المال في الإطارَين الأدبيّ والتاريخيّ. وَمن ثمَّ نتوقّف على منهجيّة بولس الرسول في التعاطي مع الخيرات المادِّيّة عند تأسيس الكنائس الأولى في المجتمع الهللينيّ – الرومانيّ المطبوع في الحضارة اليونانيّة. بعباراتٍ أُخرى، نتناول في النقطة الثانية مسألة العمل الرسوليّ وأجرة العامل المبشّر بالإنجيل. وفي كلِّ حالٍ، لا بدّ من التذكير بأهمّيّة الابتعاد عن القراءة المجتزأة، فلا تُنزع الآيات من إطارها ولا تُفسَّرُ بما يناسب المفسّر، أي من دون التحلّي بالأمانة خلال عمليّة فهم النصّ.

أوّلًا: هل الغنى مشكلة أو بركة؟

نجد في سفر التكوين نصوصًا كثيرةً متعلّقةً بسيرة الآباء، وهي ترى في الغنى المادّيّ علامة تدلُّ على رضى الله وبركته. فعلى سبيل المثال لا الحصر، نقرأ في تك ٢٤: ٣٥: « أنا خادم إبراهيم، والربّ قد بارك سيّدي جدا، فصار غنيًّا. رزقه غنمًا وبقرًا وفضّةً وذهبًا وخدمًا وخادمات وجمالًا وحميرًا». وتتعدّدُ الأمثلة، نذكر منها نصوص يعقوب، وسليمان الملك، وبداية سفر أيّوب المبارك من الله بما يملك، وبما رزقه من أولاد. فضلًا عن ذلك، يُظهر سفر تثنية الاشتراع نوعًا من رباط مبدئيّ بين حفظ الوصايا والسلوك في الشريعة من جهةٍ، وبين البركة الإلهيّة والغنى المادّيّ من جهةٍ أخرى، فنقرأ في تث ٢٨: «وإذا سمعت لصوت الربّ إلهك، حافظًا جميع وصاياه التي أنا آمرك بها اليوم وعاملًا بها، يجعلك الربّ إلهك فوق جميع أمم الأرض، وتحلّ عليك هذه البركات وتدركك (...) مباركًا يكون ثمر بطنك وثمر أرضك وثمر بهائمك، ومباركة سلّتك ومعجنك (...) وتقترض منك أمم كثيرة وأنت لا تقترض (إلخ)».

ولكن، منذ العهد القديم، بدأ اتّجاهٌ آخر بالظهورِ أيضًا، وهو يترك المؤمن أمامَ تساؤلاتٍ حول صحّة تلك المقولة التي تربط الغنى المادِّيّ ببركة الله. فالواقع المعيش آنذاك ينفي تلك الصِلة، لا سيّما وأنّ الإيمان بالحياة الأبديّة لم يكن بعد منتشرًا ولا واضحًا في تلك الحقبة. لذا، من المنطقيّ أن يفهم المؤمن أنَّ الله يكافئ محبّيه في حياتهم على هذه الأرض. ففي عهد المسيح، لم يؤمن الصدّوقيّون بالقيامة من بين الأموات، ولا عجب في موقفهم ذاك، إذ إنّهم من الطبقة الغنيّة التي ترى أنَّ الله كافأها وجعلها في موضع بركة. إلّا أنَّ خطّ التفكير هذا سوف يتعرّض لهزّات شديدة، حتّى في العهد القديم، ممّا يغيّر المعادلة بالعمق.

وَتُعَدّ قصّة أيّوب في العهد القديم مثلًا صارخًا على هذا التساؤل الدينيّ والوجدانيّ. فبعد أن افتتح السفر على الرابط التقليديّ بين الغنى والأمانة لحفظ الشريعة، بدأ العدّ العكسيّ لنقض هذا التقليد. ويتابع الكتاب بإسهاب موضوع احتجاج أيّوب وتساؤلاته حول العلاقة بين الشرّ والمعاناة، وبين الخطيئة والألم، وبين الغنى والبركة. هو الذي خسر كلّ شيء وكأنّه هدف لعنة لا يستحقّها. فكيف يكون الله عادلًا وهو يعاقب الخيِّر والأخيار في أملاكهم وعائلاتهم وأجسادهم؟: «لماذا يحيا الأشرار ويشيخون ويعظم اقتدارهم...أيدّخر الله عقاب الشرّير لبنيه؟ بل فليكافئه فيعلم ولترَ عيناه دماره وليشرب من غضب القدير...» (أيوب ٢١: ٧-٢٠).

إذًا، يكمن خطر النظرة التقليديّة إلى الغنى والأغنياء في تثمين علاقة الفرد مع الله أو تقييمها من خلال وضع الإنسان الاقتصاديّ. لذلك، نرى في العهد القديم عينه أصواتًا أخرى ترتفع، خصوصًا أصوات الأنبياء الذين حذّروا الشعب من الغموض والالتباس في اتّخاذ المواقف من الخيور المادّيّة. لا بل يَظهرُ استنكار وشجب صريحان لاستعمال المال من غير وجه عدالةٍ ورحمةٍ، بالإضافة إلى التنديد بسوء توزيع الخيرات. نقرأ مثلًا في سفر النبيّ عاموس ٤ : ٢–٨ تحذيرًا شديدًا من استغلال الأموال لبيع الإنسان، ممّا يوقظ غضب الله، «لأنّهم باعوا البارّ بالفضّة والمسكين بنعلَين، لأنّهم يدوسون رؤوس الضعفاء على تراب الأرض...». كذلك في سفر ميخا ٢: ١–٢: «ويل للّذين يشتهون حقولًا فيغتصبونها، وبيوتًا فيستولون عليها ويظلمون الرجل وبيته، والإنسان وميراثه». ونلاحظ في سفر أشعيا ٥٨ وجود تنبيه لاذع لكلّ من يبحث عن الغنى على حساب الضعيف والفقير.

نكتفي بهذا القدر من الأمثلة لنتبيّن أنّ أهمِّيَّة الموضوع لا تكمن في الغنى أو امتلاك الأموال أو في القنية بحدّ ذاتها، إنّما في كيفيّة استعمال كلّ هذه الخيرات المادِّيّة لاستعباد الإنسان، أو لتشويه صورة شعب الله كجسم واحد، كواقع متماسك، كشعب مختار مدعُوّ إلى تحقيق الأخوّة والوحدة. في هذا الإطار تتّضح المشكلة الحقيقيّة، إذ يصبح المال فخًّا يقود الإنسان إلى قبول شراء أخيه الإنسان وبيعه.

إذا كانت هويّة شعب الله المختار هويّة إخوة، فإنها لا تغدو مهدّدة بكيانها فقط، بل يضحي كلّ فرد مهدّدًا بحقيقة هويّته وبانتمائه إلى شعب العهد. من هنا، يُعَدُّ إفساد صورة الشعب المؤمن الحقيقيّة انخراطًا مسؤولًا في مسيرة الفساد، ورفضًا لله المعطي، وتغرّبًا عن هويّة أبناء الله وشعب الله. لذا، يقتضي التعامل مع المال جهوزيّةً روحيّةً واعيةً ويحتاج إلى زيادة التأهّب واليقظة، لئلّا يستعبد المال صاحبه.

وتابعت الكتب الحكميّة النداء نفسه، فنقرأ في سفر الأمثال (٢٣: ٤): «لا تتعب لتحصل على الغنى، كفّ عن التفكير فيه». وذلك، حتّى لا يصير هاجسًا قاتلًا يُفقد الإنسان القدرة على التفكير الصائب وعلى التمييز. كذلك، يلفت سفر الجامعة النظر إلى بطلان السعي إلى الثروات، لأنّ «الذي يحبّ الفضّة لا يشبع من الفضّة والذي يحبّ الثروة لا يجني ثمرها. هذا أيضًا باطل» (الجامعة ٥: ٩)، «ومن أحبّ الذهب لا يزكّى ومن اتّبع الكسب يضلّ فيه. كثيرون سقطوا لأجل الذهب فأضحى هلاكهم أمام وجوههم... طوبى للغنيّ الذي وُجد بغير عيب ولم يسعَ وراء الذهب. من هو فنغبطه؟» (ابن سيراخ ٣١: ٥).

ختامًا لهذا العرض السريع في الإشكاليّة الأولى، يبدو أنّ التناقض ليس إلّا ظاهريًّا، بينما الخطّ العامّ واضح من خلال أمثلة العهد القديم. فالكتاب المقدّس ليس مع المال أو ضدّه بالمطلق، إنّما يلفت النظر إلى أمور ثلاثة متزامنة وهي الآتية:

- **أوّلًا**: يدعو المؤمن إلى العودة دائمًا إلى الله الربّ، المعطي، نبع كلّ خير وبركة.
- **ثانيًا**: يدعو إلى عدم الربط بين الغنى والخيور المادّيّة وبين البرارة والمكافأة الإلهيّة. وهو بذلك يحرّر مفهوم الخير من المظاهر ومن كلّ ما هو مرئيّ وملموس. وهكذا، يحرّرنا الكتاب المقدّس من سطحيّة الأحكام على الآخرين بحسب مظهرهم أو إمكانيّاتهم المادّيّة وانتماءاتهم الاجتماعيّة وسواها.
- **ثالثًا**: يدعو إلى العدالة والأخوّة والعطاء، فيحثّ المؤمن على الانتقال من البعد العاموديّ إلى البعد الأفقيّ، إذ يترجم إيمانه بالله من خلال محبّته للإنسان. فالمؤمن الذي لا يحترم كيان شعب الله أي كيان الأخوّة، هو ذاك الذي لا يحترم حتّى هويّته الحقيقيّة. ويشكّل هذا الأمر واقعًا ثابتًا في كتب الشريعة والأنبياء، لأنَّ الكتاب المقدّس فيه قصّة شعب مع الله–المحبّة، أي إنّه لا يعكس تاريخ أفراد فقط، بل تاريخ شعب مع الله الذي عاهده.

وبرزت هذه النقطة الأخيرة في العهد الجديد، حيث تمَّ التشديد على أنَّ الكنز الحقيقيّ لا يتكوّن من التكديس، بل من العطاء. وفي الواقع، يُعَدُّ العطاء المجّانيّ الأمر الوحيد الذي يكسر عمليًّا حلقة جذب المال المبهر. فعندما يعطي الإنسان بفرح ومجّانيّة، يعرّي المال من قدرته المتسلّطة وينزله عن كرسيّ عرشه المكرّم. وذلك، لأنّ العطاء المجّانيّ، أي العطاء بدون انتظار مقابل، وبدون محاولة استعباد الآخر وامتلاكه، يحرّر الذي يعطي أيضًا من إمكانيّة عبوديّته المال كإلهٍ آخر. من هنا نطرح الإشكاليّة الثانية حول مجّانيّة البشارة في العهد الجديد.

ثانيًا: مجّانيّة البشارة أم حقّ المبشّر بأجرته؟

لا بدّ لنا هنا من إلقاءِ نظرة سريعة حول الإطار التاريخيّ والاجتماعيّ والجغرافيّ لئلّا نقع في بعض التقديرات أو الأحكام الخاطئة. فبعضهم يقول إنّ نقاء الديانة المسيحيّة التي أعطاها يسوع قد تحوّل مع بولس إلى ديانة سلوكيّات ولاهوتيّات معقّدة. أمّا بعضهم الآخر، فيدّعي أنّ تعاليم يسوع العميقة لا تعيشها إلّا نخبة من الناس وما إلى ذلك. فهل من تناقض فعليٍّ بين يسوع وبولس في موضوع التعاطي مع المال؟ وكيف نفسّر بعض المواقف المختلفة عمليًّا؟

أ- نبدأ في الأناجيل، حيثُ تَظهر مواقف يسوع من المال مَشوبة بالحذر، وأحيانًا بالارتياب، حتّى إنّه قال يومًا بخصوص الشابّ الغنيّ الذي انصرف حزينًا: «ما أعسر دخول الأغنياء إلى ملكوت الله، مرور جَمَل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنيّ إلى ملكوت السماء...» (مرقس ١٠: ٢٤-٢٥). وبحسب القدّيس متّى، أعلن يسوع، في عظته على الجبل، شرعة التلميذ الحقيقيّ وَأكّد بوضوحٍ ما يأتي: « لا يقدر أحد أن يخدم سيّدَين... لا تقدرون أن تخدموا الله والمال» (متّى ٦: ٢٤). فلماذا يترك الإنجيل المال في مكانة المنافسة مع الله؟ ليس لأنّ المال يجتذب العبادة، بل لأنّه يحمل المنطق المعاكس. فلِلمال له منطقه المختلف كلّيًّا عن منطق الله. وتُعَدُّ ديناميّة الإنجيل بعيدة كل البعد عن منطق المال، فهما خطّان لا يلتقيانِ. بين منطق المجّانيّة ومنطق التسلّط، وبين منطق العطاء ومنطق التجميع والتكديس، اللقاء صعب. لا تكمن المشكلة في المال بحدّ ذاته، فالمسيح يسوع لم ينسحب من العالم، بل دفع الضريبة (متّى ١٧: ٢٧) واستند إلى أموال المحبّذين (لوقا ٨: ٣)، وجعل لمجموعته أمين صندوق (يوحنّا ٦: ١٢). والأكثر من ذلك، أنّهُ لم يتردّد في ضرب المثل بالوكيل الخائن مشجّعًا تلاميذه على أن يقتنوا لهم أصدقاء بالمال الكاذب (لوقا ٩: ١٦).

إذًا الصعوبةُ حقيقيّةٌ، فالمال ضروريّ والمال شيطانيّ. أين الحلّ؟ غالبًا ما تتردّد في أذهاننا كلمة يسوع في متّى ١٧: ٢٢-٢١. وَعندما سُئِل يسوع عن واجب تأدية الجزية، سأل بدوره: «لمن الصورة والكتابة؟»، مختتمًا بحكمته: «أدّوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله». وَكثيرًا ما يتوقّف القارئ عند القسم الأوّل من الآية معتبرًا، بكلِّ بساطةٍ، أنّ الدينار أو العملة الرومانيّة تحمل صورة القيصر وختمه. ولكن، الأمرُ أبعد من ذلك. فالمعنى الحقيقيّ للآية يكمن في الجزء الثاني من الجملة، حيث يدعو يسوع السامعين إلى إعادة ما يخصّ الله إلى الله، فالإنسان هو صورة الله وختمه، وإلى الله يعود. ولا يُعَدُّ الإنسان عبدًا لقيصر، ولا ملكًا لهُ. لذا، لا يجوز بيع الإنسان ولا شراؤه كسلعة. كذلك، لا يجوز استملاكه ولا استعباده ولا حتّى السيطرة عليه. وَتأدية ما لله تعني إعادة الإنسان إلى خالقه، أي احترام كرامته وهويّته وإخضاع المال لخدمته، لا العكس. بعباراتٍ أُخرى، إنَّ يسوع هنا لا «يشيطن» المال كإله منافس، بل يَرفُض إذلال الإنسان المخلوق على صورة الله بسبب المال أو لأجلهِ.

ب- كيف فَهِمَ الرسل الأوائل إذًا موقف يسوع من المال بالعلاقة مع البشارة بالملكوت ونشر الإنجيل؟ وهل غيّر بولس الرسول هذه المفاهيم؟

بحسب الأناجيل الإزائيّة (متّى ١٠// مرقس ٦// لوقا ٩-١٠)، نشهد وجود تقليد قديم ومثبّت حول واجب الاهتمام بمعيشة المبشّر. فهذا الفرد يأكل ممّا يقدَّم له ويبقى في بيتٍ من يستقبله متفرّغًا للبشارة. وتنبع الفكرة الرئيسة التي تدفع المبشِّر إلى القيام بهذا السلوك من مبدأَي المبادلة والمشاركة. ولا شكَّ في أنَّ بولس يعرف هذا التقليد ويعزوه إلى أمر الربّ بأنّ خادم الإنجيل من الإنجيل يعتاش (راجع ١ كورنتس ٩). فالتلاميذ الذين أرسلهم يسوع للبشارة، بنوا تصرّفهم على نشاط يسوع وعلى السلطان الذي منحهم إيّاه. وَفضلًا عن التبشير، كانوا يشفون المرضى ويخرجون الشياطين. وكما أنّ ابن الإنسان ليس له موضع يسند إليه رأسه (لوقا ٩: ٥٨)، كذلك ذهب التلاميذ للبشرى مُتجرّدينَ من الكماليّات، لدرجةٍ أنّهم لم يأخذوا معهم عصًا، ولا نعلين، ولا زادًا. ويعبّر هذا الواقع الرسوليّ عن تواضع المرسل، وعن فقره وضعفه وسرعة عطبه أمام قبول الناس البشارة أو رفضها. وعلى الرغمِ من أنَّ الرسول يكون فارغ اليدين، إلّا أنَّهُ ليس فارغًا من كلمة الربّ الذي يدعو فيها إلى الإيمان والتوبة، وهو فقير أمام حرِّيّة الآخرين. يلقي الرسول الكلمة إلى الناس، وَيسلّمهم رسالته إلى حسن ضيافة العالم، وَيعتمد على الآخرين من دون أن يملك شيئًا (راجع ضيافة مرتا ومريم في لوقا ٣٨: ١٠-٤٢). هذا التجرّد المطلوب من تلاميذ يسوع في مجتمع ريفيّ، أو خلال تنقّلاتهم بين القرى والمدن في أرض فلسطين، يرمز إلى مجّانيّة كلمة الله التي لا تفرض نفسها بالقوّة، بل تُعرَض بكل بساطةٍ وفقرٍ وتواضعٍ.

لكن، بدأ هذا الشكل الجذريّ في الزهد الرسولي يواجه، شيئًا فشيئًا، مشكلات عمليّة من الواقع. وَكانت المسافات، في الجليل والسامرة واليهوديّة، لا تزال تسمح للمبشّرين بالتجوّل بينها، وكان المجتمع يستضيف بسهولة عابري السبيل. لكن، عندما توسّع المبشّرون ببشارتهم وانتشرت رسالتهم، اضطرّوا إلى تغيير بعض عاداتهم القديمة (لبس النعلين أو عدمه مثلًا في مرقس ٩: ٦ أو في متّى ١٠: ١٠ ولوقا ١٠: ٤). فدخلوا بيوتًا جديدةً ومدنًا جديدةً، وأمسوا معرّضين لأكل طعام غير طاهر بحسب الشريعة، كما نقرأ في لوقا ٧: ١٠-٨ «كلُوا ممّا يقدّم لكم». ومن ثمّ، بدأ النشاط العفوي يتأسّس ويتّخذ طابعًا جديدًا، وبدأت معه مخاطر الانحراف إلى نوع من البرجوازيّة، أي إلى مطالبة المبشّر بالحصول على استحقاقاته وحقّه المكتسب في الأجرة ومتطلباته الطفيليّة على حساب المضيف.

وفي الواقع، إنّ تحرّك بولس في المجتمع الرومانيّ اليونانيّ سوف يغيّر هذا الوضع في شكله وأساسه. فالمجتمع الوثنيّ الذي يبشّر فيه بولس مترسّخ في ثقافة «المدينة»، حيث

يعتاش كلٌّ من أفراده عادةً من مهنته أو من تجارته. وفي هذا الإطار، قد يبدو المرسل على الطريقة القديمة طفيليًّا يعيش على حساب الآخرين. بالإضافة إلى ذلك، اتّخذ بولس قرارًا مختلفًا عن خيارات سائر الرسل الآتين من أرض فلسطين. إلّا أنَّ ذلك لا يحدو به إلى اتّهام الآخرين، فيقول في ١ كور ٩: «ألستُ أنا رسولًا، ألستُ حرًّا؟... أليس لنا الحقّ في أن نأكل ونشرب، أليس لنا الحقّ بأن نجول بأخت زوجة كباقي الرسل وإخوة الربّ والصفا؟ أم أنا وبرنابا وحدنا ليس لنا حقّ بأن لا نعمل؟ من تجنّد أبدًا بنفقة نفسه؟ ومن يغرس كرمًا ومن ثمره لا يأكل؟ أو من يرعى رعيّة ومن لبنها لا يأكل؟... فإنّه مكتوب في ناموس موسى: لا تكمّ ثورًا على البيدر يدرس. ألعلّ الله تهمّه الثيران أم يقول هذا من أجلنا؟ ألستم تعلمون أنّ الذين يخدمون الهيكل، من الهيكل يأكلون، والذين يلازمون المذبح يشاركون المذبح؟ هكذا أيضًا أمر الربّ: إنّ الذين يبشّرون بالإنجيل، من الإنجيل يعيشون. أمّا أنا فلم أستعمل شيئًا من هذا ولا كتبت هذا لأجل ذلك، لأنّه خير لي أن أموت من أن يعطّل أحد فخري».

إذًا، يعترف بولس بأنّ قبول الأجرة أمر من الربّ، ولكن لِمَ لا يلتزم بالخيار عينه؟ هو الذي يبشّر الكورنثيّين معتبرًا إيّاهم أولاده في الإيمان، هو الذي أسّس كنيسة الله في المدينة، يحقّ له، وأكثر من الآخرين، أن يستفيد من واجباتهم تجاهه. إلّا أنَّهُ قرّر التخلّي عن حقّه بكامل حرّيّته ورضاه. ومن المعلوم أنّ بولس يعمل بيدَيه لئلّا يكون عبئًا على الكنيسة (راجع ١ تسالونيكي ٢: ٧-٩؛ ١ كورنتس ١٢: ٤). ويشرح الرسول أسس خياره في ١ كورنتس ١٦: ٩-٢٣، مبيّنًا أنّ التبشير بالإنجيل فريضةٌ عليه، وأنّ عدم قبوله الأجرة، أمرٌ يجعله خادمًا للجميع على حدّ سواء، وحرًّا من الجميع تجاه البشارة. فهو يريد أن يبقى مستقلًّا ماديًّا لئلّا تكون بشارته جزءًا من ارتباطٍ بحزب أو بفريقٍ أو بفئةٍ تعنى بمعيشته. هذا على الصعيد الواقعيّ العمليّ. أمّا على الصعيد اللاهوتيّ، فيُظهر موقف بولس مجّانيّة الإنجيل من خلال مجّانيّة عمل الرسول. وَتعبّر حياة بولس وتصرّفاته ومواقفه تجاه الربح الماديّ، أبلغ تعبير عن مواصفات الإنجيل الذي يبشّر به.

لذلك، ولئلّا يصبح حقّ الرسول في العيش من رسالته استغلالًا للموعوظين، يمكن لبولس أن يناقض أمر الربّ بدون أن يدين سائر الرسل. وفي هذا المبدأ ملء الطاعة لروح الربّ وعمق المعرفة لمحيطه اليونانيّ. يبدو الأمر متناقضًا وبعيدًا عن المنطق، إنّما في الواقع يبقى الجوهر كما هو. كان الرسل الجليليّون يشهدون لمجّانيّة الإنجيل بقبول الضيافة والمشاركة بما يُقدّم لهم؛ وبولس رسول الأمم يشهد لمجّانيّة الإنجيل في المجتمع الهللينيّ

بعيش مجّانيّة البشارة ورفض التطفّل على أحد. لذلك يعمل بيدَيه، وكما يقول كتاب أعمال الرسل، كان من أهل صناعة الخيام، على مثال أكيلا وبرسكلة اللّذَين أضافاه في بيتهما. وليس ذلك مستغربًا، إذ إنّ أصحاب المهن والحرف كانوا يلتقون في أحيائهم الخاصّة في المدن، ويتعاونون من خلال شبكة علاقات طبيعيّة في ذلك العصر.

ولا بدّ من القول إنّ الاستقلال المادّيّ المنشود لدى بولس ليس تعاليًا ولا انعزالًا، ولا هو إيديولوجيّة متحجّرة، فهو في الوقت عينه يقبل الهبات ويكتب بهدفِ جمع المساعدات من أجل فقراء أورشليم بحيث ساعدته كنيسة فيلبّي مثلًا بينما كان في السجن (فيلبّي ٤: ١٠-٢٠). إنّما الأهمّ من ذلك، أنّه اتّخذ إستراتيجيّة ماليّة رسوليّة: فهو يرفض قبول المساعدة المادِّيّة لنفسه من الكنيسة التي يقيم فيها، ولكنّه يحثّ الكنيسة على التضامن مع غيرها. إنّه لا يطلب شيئًا لنفسه، ولكنّه يطلب للآخرين. هذه إذًا سياسته: ألّا يعيش على عاتق الكنيسة التي يبشّرها، ولكنّه عندما ينتقل إلى سواها يدعوها إلى المساعدة بعمل التبشير، وكأنّه يلزم كلّ كنيسة محلِّيّة أن تحمل معه همّ البشارة وتساهم في بناء كنيسة أخرى.

خلاصة

إذًا، تتلخّص إستراتيجيّة بولس الاقتصاديّة أوّلًا في استقلاليّته الماليّة. فهو يريد أن يعمل بيدَيه، لئلّا يكون عبئًا على أحد، ممّا يشكّل دليلًا على مجّانيّة البشارة وسخاء إنجيل المسيح (١ تسالونيكي ٢: ٩؛ ٢ كور ١٢: ١٣). وَيحرِّر العمل بولس من كلّ تكتّل أو تحزّب أو مجموعة خصوصًا في قلب الكنيسة (١ كور ٩: ١٩)، إلّا أنّه لا يكتفي بذلك، إذ يمكننا الاستنتاج من ٢ كور ١: ١٦؛ ١١: ٧-٩ أنّه يمارس تكتيكًا آخر رفيع المستوى. فهو يرفض قبول أيّ أجر طالما يبشّر في كنيسة معيّنة، لكنّه يقبل بالإعانات عندما ينتقل بهدف تأسيس كنيسة أخرى. وهكذا، عمل بولس على توظيف الجماعات الكنسيّة في عمليّة تبشير جماعات أخرى (فيلبّي ١: ٥؛ ٤: ١٤-١٧). فهو من جهة يحافظ على حرّيته ومجّانيّة كرازته، ومن جهة أخرى يدعو المؤمنين إلى أن يكونوا جسد المسيح الواحد، بالمشاركة مع كلّ جماعة كنسيّة جديدة، ومع الكنيسة الأمّ في أورشليم التي يجمع لها التبرّعات (٢ كور ٨ و٩). وهكذا تنتقل القضايا الماليّة والمعونات الاقتصاديّة من باب «العلاقة الواجبة من المؤمنين إلى راعيهم»، إلى باب «العلاقة الأخويّة بين الكنائس»، بين أعضاء الجسد الواحد والعهد الجديد.

بالتالي، تُعَدُّ هذه الإستراتيجيّة إستراتيجيّة تواصُل وشركة (*koinonia*)، حيث يُفتح المجال للفقراء والضعفاء كي يكونوا أعضاءً في الجسد الواحد. ففي الضعف يبدو كمال قدرة الله (٢ كور ١٢ : ٩)، ولأنّ كلمة الصليب هي حكمة الله وقوّته لكلّ من يسلك سبيل الخلاص (١ كور ١/ ١٨).

ويبقى السؤال مطروحًا على العالم اليوم باقتصاده وسياسته وقيمه، هو عالم يحدث الانقسام والتشتّت، ويخلق كلّ يوم فقراء من جميع الأنواع وعلى الأصعدة كلّها. فهل من كلمة جديدة تترجم بها كنائسنا على الأرض مجانيّة الإنجيل؟

Bibliographie

- De Foucauld Jean-Baptiste, *Peut-on apprivoiser l'argent aujourd'hui ?* Hermann, 2016. Jean-Baptiste de Foucauld (Dir.),
- Legay Marie-Laure, *Histoire de l'argent à l'époque moderne,* Armand Colin, 2014.
- Matta Yara, « L'évangile de Paul selon Philippiens : sans frontières ou nouvelles frontières », *Revue d'éthique et de théologie morale* 2017, p. 79-98.
- Tassin Claude, « Paul et l'argent », in *L'apôtre Paul. Un autoportrait,* Desclée de Brouwer, 2009, p. 191-234.